ملامح الشخصية العربية ومنظومة القيم
لامية العرب للشنفرى نموذجًا

دكتور

مازن بن محمد مريسي الحارثي

أستاذ الأدب والبلاغة والنقد المشارك

جامعة الطائف

مستخلص الدراسة

موضوع هذه الدراسة هو منظومة القيم الأخلاقية والاجتماعية في لامية العرب للشنفرى وتشكيل السياج القيمي الذي حافظ على هوية الأمة العربية. فقد كثر اهتمام الباحثين بقصيدة الشنفرى حتى سمت من بين اللاميات العربية، وهي كثيرة باسم لامية العرب؛ نظرًا لما حوته من مادة لغوية وتصويرية وشاعرية، إضافة إلى ما اشتملت عليه من قيم عربية أصيلة.

وتتجه الدراسة إلى التفريق بين القيمة والخلق لذا فقد اختار البحث في منظومة القيم لارتباط هذه القصيدة بواحد من الشعراء الصعاليك المتمردين على تقاليد المجتمع فهي تمثل الأنا المتمردة في مواجهة الآخر.

ونظرًا لأهمية هذه القصيدة فقد ترجمت إلى عدة لغات مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والبولندية [١] وكتب عنها كثير من المستشرقين مثل ردهاوس، كرنكو، نولدكة، دى ساسى، وهمر برحستال. وقد نالت هذه القصيدة كثيرًا من الشرح قديمًا وحديثًا [٢]، فقد شرحها المبرد ت (٢٨٥) ه، والتبريزي ت (٥٠٢) ه، والزمخشري ت (٥٣٨) ه، والعكبري ت (٦١٦) ه، وكلها شروح مطبوعة إضافة إلى كثير من الشروح المخطوطة

لثعلب وابن دريد والدميري والقصامي الدمشقي والتازي، حتى شرحت باللغة الفارسية شرح غلام حسين الشيرازي.

فغاية البحث هي دراسة ملامح الشخصية العربية ومنظومة القيم في حدود خطاب اللامية العربية، وتحولها وفقا للظروف الاجتماعية التي فرضت ذلك التحول.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التزامني من خلال آلية التحليل مع الإفادة من العلوم المساعدة، في محاولة لدراسة وتأطير منظومة القيم للشخصية العربية التي برزت في هذا الخطاب الشعري.

كلمات مفتاحية:

الشخصية، منظومة، القيم، لامية العرب.

Abstract

This study addresses the system of social values in Lāmiyyat al-ʿArab by al-Shanfarā, and the construction of the value framework that preserved the identity of the Arab nation. The poem has received wide scholarly attention and rose above other Arabic lāmiyyāt, earning the title Lāmiyyat al-ʿArab due to its rich linguistic, imagistic, and poetic substance, in addition to the authentic Arab values it embodies. The study seeks to distinguish between “value” and “ethic,” and therefore focuses on the system of values in this poem, attributed to one of the ṣuʿlūk poets who rebelled against social conventions. The poem thus represents a rebellious “self” in confrontation with the “other”.

Because of its importance, the poem has been translated into several languages such as English, French, German, and Polish, and has been the subject of many Orientalist studies, including those of Redhouse, Krenkow, Nöldeke, De Sacy, and Hammer-Purgstall. It has also been extensively commented upon both in classical and modern times: by al-Mubarrad (d. 285 AH), al-Tabrīzī (d. 502 AH), al-Zamakhsharī (d. 538 AH), and al-ʿAkbarī (d. 616 AH), with further manuscript commentaries by Thaʿlab, Ibn Durayd, al-Damīrī, al-Qasāmī al-Dimashqī, and al-Tāzī. Remarkably, the poem was also explained in Persian by Ghulām Ḥusayn al-Shīrāzī.

The purpose of the research is to study the features of the Arab personality and the system of values within the limits of the discourse of Lāmiyyat al-ʿArab, and its transformation according to the social circumstances that imposed some transformation.

The study adopts a descriptive synchronic methodology, using analytical tools and drawing upon auxiliary sciences, in an attempt to examine and frame the system of values embodied in the Arab personality as reflected in this poetical discourse.

Keywords: *Personality, System, Values, Lāmiyyat al-ʿArab.*

الشاعر الجاهلي الشنفرى، وهو واحد من أبرز الشعراء الصعاليك الذين مثلوا ظاهرة في الشعر العربي في العصر الجاهلي. واسم الشنفرى ونسبه ونشأته الأولى غامضة كل الغموض فقد روى أبو الفرج الأصفهاني أنه " ثابت بن الأواس الأزدي ولقب بالشنفرى لعظم شفتيه، وقد سبت بنوسلامان الشنفرى وهو غلام فجعله الذي سباه في بهمة يرعاها مع ابنة له، وهو أحد صعاليك العرب وعدائيها " [٣]. ولعل هذا ما دفعه للتصعلك.

وقد ذكر عبدالقادر البغدادي " أن الشنفرى شاعر جاهلي قحطاني من الأزد، وهو من بنى الحارث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنيء بن الأزد " [٤]، وهو واحد من أغربة العرب، وهم قسم من الشعراء الصعاليك الذين أطلق عليهم هذا الاسم لسواد ألوانهم، وقد كان هذا سببًا لاستعبادهم، وهم الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم من الإماء، ولكن الثابت أن أم الشنفرى كانت حرة من بني فهم، ولكنها سبيت فقد كانت إحدى السبايا، وقد قتل أبوه وهو صغير فتحول هو إلى عبد وتحولت أمه من حرة إلى أمة.

عاشت أمه حياة صعبة من الناحية الاجتماعية وذلك بعد مقتل أبيه، وفى قصة أخذه بثأر أبيه ما فيها من المبالغة، حين قرر أن يقتل مائة من أعدائه ثأرًا لنفسه ولأبيه، فهو حر يعود لأب حر وأم حرة، حيث قال[٥]:

أَبي اِبنُ خِيارِ الحُجر بَيتاً وَمَنصِباً وَأُمّي اِبنَةُ الأحرَارِ لَو تَعرِفينَها

.

فمن قصص نشأته يتضح هذا الواقع الاجتماعي الذي عرض هذا الطفل الصغير للظلم ودفعه إلى التصعلك. ولكنه عاش التصعلك بنفس العربي الحر من منظور قيمي يُعلي من شأن الحرية والبطولة التي توزعت عنده ما بين البطولة الحربية، والبطولة النفسية، وكذلك البطولة الأخلاقية كما رأى شوقي ضيف في كتابه [٦].

أما عن مصطلح القيمة فإنه من المصطلحات التي تتقاطع جليا وتتعالق مع مصطلح آخر وهو مصطلح الخلق، حتى إن كثير من الدارسين يستخدمون مصطلح القيم بمعنى الأخلاق، ولكن النظرة المتفحصة تدرك أن ثمة فرق دقيق بين القيمة والخلق [٧].

فقد ورد في المعجم الفلسفي الشامل أن " القيمة من وجهة نظر موضوعية هي ما يكون به طلب الشيء واستحقاقه التقدير، فإذا كانت لذات الشيء فهي قيمته المطلقة، وإذا كانت لما فيه من منافع فهي قيمته الإضافية، وقيمة الفعل الأخلاقية هي ما فيه من خير، وبقدر اقترابه من صورة الخير في الذهن بقدر زيادة هذه القيمة، وصورة الخير في الذهن هي قيمته المثالية وهي أساس أحكام القيمة، والقيم الدينية كالمقدس والمدنس، والقيم الحياتية كالنبيل والمبتذل، والقيم الروحية كالجميل والقبيح واللائق وغير اللائق" [٨].

أما الخلق فهو الطبع والمزاج الشخصي "وأخلاق العرب وتقصد عاداتهم وطبيعتهم، وقيل الخلق ملكة، وقيل كيفية نفسانية، وهيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير تقدم فكر وروية وتكلف، فغير الراسخ من صفات النفس كغضب الحليم لا يكون خلقًا، وكذا الراسخ الذي يكون مبدأ للأفعال النفسية بعسر وتأمل، كالبخيل إذا حاول الكرم، وكالكريم إذا قصد بإعطائه الشهرة، وكذلك من تكلف السكون عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم. وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء. والخلق ينقسم إلى فضيلة هي مبدأ لما هو كمال، ورذيلة هي مبدأ لما هو نقصان" [٩].

والملكة كما عرفها السيد الشريف الجرجاني "هي صفة راسخة في النفس، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة تسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة مادامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس

حتى رسخت تلك الكيفية وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقًا" [١٠].

من هنا نستطيع القول أن الأخلاق أو الخلق يرتبط بالحالة المزاجية للإنسان نفسه، والقيم ترتبط بالعادات السلوكية للمجتمع، الخلق ثابت لا يتغير بسهولة ويسر، فمن شب على شيء شاب عليه، والطبع أو المزاج يغلب التطبع أما القيم بالنسبة للمجتمعات نفسها فهي متغيرة وليست ثابتة، متغيرة بتغير المجتمعات وليست ثابتة عند كل الشعوب مثل الأخلاق، القيم مكتسبة وليست فطرية، والخلق فطري وليس مكتسبًا، فالقيم تشكل الأساس النظري الذي تستند إليه الأخلاق، والأخلاق تعتبر تطبيقا عمليا لتلك القيم، فالعدل قيمة، والحكم بين الناس بالحق هو الخلق، أو السلوك الخلقي، ومثلها الأمانة، فأداء الأمانة هو خلق، وعدم الاختلاس هو خلق أيضا، عليه فإن القيمة متصورة والخلق هو العمل بناء على ذلك التصور.

وقد بنى الشعراء العرب في كل عصور الأدب العربي قصائدهم في المدح والفخر والهجاء على منظومة الفضائل والرذائل سلبًا وإيجابًا كما رأى ابن طباطبا العلوى في كتابه عيار الشعر؛ حيث قال: " وأما ما وجدته في أخلاقها ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضد حالة فيه فخلال مشهورة كثيرة: منها في الَخلق الجمال والبسطة، ومنها في الخُلق السخاء والشجاعة، والحلم والحزم والعزم، والوفاء، والعفاف، والبر، والعقل، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق، والصبر [...] وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من قرى الأضياف، وإعطاء العفاة، وحمل المغارم، وقمع الأعداء وكظم الغيظ وفهم الأمور، ورعاية العهد، والفكرة في العواقب والجد، والتشمير، وقمع الشهوات، والإيثار على النفس، وحفظ الودائع، والمجازاة، ووضع الأشياء مواضعها [...] وأضداد هذه الخلال: البخل، والجبن، والطيش والجهل، والغدر، والاغترار، والفشل، والفجور، والعقوق، والخيانة، والحرص

والمهانة، والكذب، والهلع، وسوء الخلق، ولؤم الظفر، والخور، والإساءة، وقطيعة الرحم، والنميمة، والخلاف، والدناءة والغفلة، والحسد والبغي، والكبر، والعبوس، والإضاعة، والقبح، والدمامة، والقماءة، والابتذال، والخرف، والعجز، والعي"[١١].

ويلاحظ من خلال نص ابن طباطبا عدم اهتمام النقاد العرب بالتفريق بين الخلق والقيمة، على الرغم من تنبه الفلاسفة العرب لهذا؛ حيث جمع ابن طباطبا في نصه ما بين الأخلاق والقيم تحت مصطلح واحد وهو الأخلاق، على الرغم من عبقرية تنبههم إلى أثر السياق الاجتماعي في وجود الخلق أو عدم وجوده مع التأكيد على رسوخ الخلق في النفس. وهذا الملمح بالغ الأهمية في تناول شعراء الصعاليك درسا في الشعر العربي والجاهلي منه على وجه الخصوص، ولاسيما في تناول لامية العرب للشنفرى، فالشاعر يعلن منذ بداية القصيدة تغيرًا في منظومة القيم؛ حيث قال في البيت الأول[١٢]:

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيلُ

.

وهنا يطلب الشاعر من أهله أن يكونوا حريصين على حماية أنفسهم؛ لأنه سيغادرهم ويرحل، وهو الذي كان يوفر لهم الحماية، ولكن هذا السلوك خيانة للعهد، فهل هو غدر وفقدان للوفاء؟

إنه تعبير من الشاعر عن غضبه وحنقه، وردة فعل نفسية منه؛ لأنهم ظلموه وحطو من قيمته واستعبدوه لسواد لونه على الرغم من معرفتهم بحسبه ونسبه، وهذا أدى إلى تجذر الإحساس بالقهر مصداقًا لقول طرفه بن العبد البكري[١٣]:

وَظُلمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

.

فمطلع القصيدة يعد إعلانا جليا على التغير في منظومة القيم القبلية في شعر ما قبل صدر الإسلام، ذلك أن الشعر في تلك الفترة يتجه بشكل كبير منه إلى تمجيد القبيلة والدفاع عنها، والولاء والطاعة لها، ويعتد بانتمائه لها، مهما كانت الظروف، لكن الحالة هنا تغيرت وكأنه فيه نبذ لقبيلته يقابل نبذهم له، فالرحيل والارتحال عن القبيلة يعد إعلانا صريحا الخروج عن القيم التقليدية، وتبني الخطاب لقيم جديدة مبنية على الاستحقاق الشخصي لا النسب، وكأنه يؤسس لقيم مجتمع الصعاليك أو سمها -إن شئت- (قيم الصعلكة) هذه القيم التي لا ترتبط بالدم ولا بالقبيلة.

ثم قال [١٤]:

فَقَد حُمَّت الحاجاتُ واللَيلُ مُقمِرٌ وَشُدَّت لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرُحلُ

.

فهو في هذا البيت يؤكد على أن كل أموره قد أصبحت جاهزة للرحيل، وأنه على أتم الاستعداد، ليأتي البيت الثالث من اللامية كاشفا عن أثر السياق الاجتماعي في تغير منظومة القيم الخلقية؛ حيث قال [١٥]:

وَفي الأَرضِ مَنأى لِلكَرِيمِ عَنِ الأَذى وَفيها لِمَن خافَ القِلى مُتَعَزَّلُ

.

ويتضح من هذا البت دارك الشاعر التام للأمور المترتبة على ذلك القرار، وأن الابتعاد قطع لصلة الرحم، وصلة الرحم من الفضائل، ولكن نفسه الأبية ترفض ذل الأهل، فالابتعاد أفضل، لأن اعتزال الناس أهون من احتمال أذيتهم. وهذا يعيدنا إلى قول ابن طباطبا العلوي: " ولتلك الخلال المحمودة حالاتٌ تؤكدها وتضاعف حسنها وتزيد في جلالة المتمسّك بها والمفتخر بالاحتواء عليها، كما أنّ لأضدادها أيضاً حالات تزيد في الحطّ ممن وسم بشيءٍ منها ونسب إلى استشعار مذمومها والتّمسك بفاضحها: فالجود في حال العسر موقعه فوق موقعه في حال الجدة وفي حال الصحو أحسن منه في حال السّكر،

كما أن البخل من الواجد القادر أشنع منه من المضطّر العاجز، والعفو في حال القدرة أجلّ موضعاً منه في حال العجز، والشجاعة في حال مبارزة الأقران أحدّ منها في حال الإحواج ووقوع الضّرورة، والعفّة في حال اعتراض الشّهوات والتّمكن منها أفضل منها في حال فقدان اللذات واليأس من نيلها، والقناعة في حال تبرّج الدنيا ومطامعها أحسن" [١٦].

وتجد أنه بعد ذلك يلجأ إلى ما يعرف بظاهرة الامتداد الوجداني، أي التماهي مع معطيات الطبيعة وهي ظاهرة تتجلى حين يعتري الإنسان الحزن الشديد، كما رأى حامد عبدالقادر في كتابه دراسات في علم النفس الأدبي[١٧]، فالشاعر بعد أن خذله قومه وتركهم، قام واستبدلهم بحيوان الصحراء؛ حيث إنهم لا يفشون للإنسان سرًا، ولا يطيلون اللوم أو المؤاخذة على الجرم حيث قال[١٨]:

وَلي دونَكُم أَهلَونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جِيئَل

هُمُ الأهل لا مُستَودَعُ السِرَّ ذائِعٌ لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ

.

فقد استبدل أهله بأهل آخرين هم الذئب والنمر والضبع، والحيوانات التي ذكرها وفيها طابع الغدر والخسة ولكنه رآها خيرًا من أهله، والشاعر هنا يصنع لنفسه واحدًا من مكانيزمات الدفاع أو آلياته، وكأنه قد جرد من ذاته من يسأله لم هذه الحيوانات دون غيرها؟ فيجيب: لأنها أفضل من أهله الذين استعبدوه وخذلوه، فهم لا يفشون السر، كما أن ليس عادتهم الخذلان حتى للجاني.

وقد ذكر صاحب كتاب سكب الأدب على لامية العرب أنه لم يذكر الأسد لأنه " لا يظن به التجاء إلى من هو أقوى منه فيكون هاربًا من ذل إلى ذل، ومن ضيم إلى ضيم، فيقع فيما فرَّ منه، ولأن الأسد لا يألف أحدًا لزعمه أن ليس له

كفء" [١٩] ،ويلاحظ هنا أن الشاعر قد جاء بلفظ الأهل معرفة بالألف واللام، وهي آلية من آليات القصر، فهم الأهلُ، ولا أهلُ وغيرهم.

إن اجتناب الشنفرى لقومه، وتعريضه بهم ليس أمرًا راسخًا في النفس بل هو نوع من ردة الفعل وهو كذلك عتاب، والعتاب لا يكون إلا بين الأحبة لذلك نستطيع القول إن هذه القصيدة غرضها الرئيسي هو العتاب، والقراءة الأخلاقية للامية العرب تؤكد ذلك، فالشاعر محب لأهله وإن كان غاضبًا منهم لأن من عرف الحب لا يعرف الكراهية، كما قال الشاوي في كتابه سكب الأدب على لامية العرب " ويستفاد منه أن الشنفرى قد جنت عليه قومه جناية لم تجنها قوم بحيث ألجأته تلك الجناية إلى التعريض بذمهم، بل إلى هجر بنى آدم كلهم، وإلا فالشنفرى لما فيه من علو الهمة لا يرتكب هذا من غير سبب قوى، إذ من كان في صفاته لا يرضى أن ينتقص عشيرته وينسب إليهم هذه الأوصاف دون غيرهم من أحياء العرب " [٢٠].

وهذه طبيعة الإنسان العربي، وهذا ما تؤكده دراسة الأخلاق العربية. قال على بن مقرب العيوني [٢١](٢٢):

فَإِن تَغاضيتُ عَن قَومي فَعَن كَرَمٍ مِنّي وَما ذَنبُ كُلِّ الناسِ يُغتَفَرُ

.

ويروى أن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أوصى ابنه بحفظ القرابة وحق العشيرة فقال[٢٣]:

وعمك وابن العم دونك بعده يرد الأعادي الكاشحين ويدفع

وليس عقاب الطير يومًا وإن بها تَذِلُّ وتنقادِ البغاث وتخضع

تولى إلى وكر سوى وكرها الذي تؤوب إليه للمبيت وترجع

.

ويمكن القول بأن هذا الامتداد الوجداني يعزز فكرة التحول في منظومة القيم القبلية، وذلك من خلال عدة أوجه، منها الرفض القاطع والواضح لموقف الأهل والقبيلة تجاهه، وقد صرح الشنفرى بأنه لا يرى في قومه أهلًا حقيقيين، وهذه ضربة جوهرية في قلب المنظومة القَبَلية التي تعتبر "الأهل والقبيلة" أساس الهوية والانتماء، لذلك نجد عنده التماهي مع الحيوان بدل الإنسان حيث يميل الشاعر إلى كائنات الغابة التي تتمتع بصفات نبيلة (الشجاعة، القوة، الصبر) بدلًا من البشر المتصفين بالضعف والخيانة، ويعد ذلك نقدا أخلاقيا ضمنيا لمنظومة القيم المجتمعية ونقدًا عميقًا للبنية الاجتماعية التي تُكرّم الضعف أو الحياء السلبي أو الجبن، فيفضّل الحيوان الذي يعيش بكرامة على الإنسان الذي يعيش بذلّ أو نفاق.

إن استبدال الشاعر لقيمة الانتماء القبلي بولاء رمزي للكائنات البرية، حتى لو كانت تُعرف بالافتراس أو اللؤم، لا يُفهم منه أنه مدحًا لهذه الحيوانات من زاوية منظومة الأخلاق التقليدية لدى البشر، بل باعتبارها رموزًا للحرية والصدق الفطري؛ فالحيوان، في نظره يعيش وفق ناموس طبيعي لا يعرف الزيف أو النفاق، فاختيار هذه الحيوانات يعكس رؤية وجودية تقع بين "الالتزام وللالتزام" ترى في اللؤم الصادق منزلة أعلى من "الكرم الزائف"، وفي " الوحش الحر" بديلًا عن " الإنسان المستعبد لأوهام الشرف والدم". بهذا، يعيد الشاعر تعريف الكرامة والشجاعة لا كموروث اجتماعي، بل كقيمة فردية تُكتسب بالصراع والصبر والاستقلال، حتى لو كان ثمنها العزلة أو الجوع أو الموت.

تتجه القصيدة بعد ذلك لرسم ملامح صورة الشاعر من خلال منظومة القيم؛ من خلال المفاضلة القيمية بينه وبين من ارتضاهم عن أهله وقبيلته، ورأى فيهم من تفاوت وعلو في القيم، حيث قال [٢٤]:

وَكُــلٌّ أَبِــيٌّ باسِــلٌ غَيــرَ أَنَّنــي إِذا عَرَضَـت أُولـى الطَرائِدِ أَبسَلُ
وَإِن مُدَّتِ الأَيدي إِلى الزادِ لَم أَكُنُ بِـأَعجَلِهِم إِذا جَشَـعُ القَـومِ أَعجَـلُ
وَمـا ذاكَ إِلاّ بَسـطَةٌ عَـن تَفَضُّـلٍ عَلَـيهِم وَكـانَ الأَفضَـلَ المُتَفَضِّـلُ
وَإِنّـي كَفـانِي فَقدُ مَن لَيسَ جازِيـاً بِحُســنى وَلا فــي قُربِــه مُتَعَلَّــلُ
ثَلاثَـــةُ أَصــحابٍ فُــؤادٌ مُشَــيَّعٌ وَأَبيَضُ إِصليتٌ وَصَفراءُ عَيطَلُ
هَتوفٌ مِنَ المُلسِ المُتونِ يَزينُها رَصـائِعُ قَـد نيطَـت إِلَيها وَمِحمَلُ
إِذا زَلَّ عَنهـا السَـهمُ حَنَّـت كَأَنَّهـا مُــرَزَّأَةٌ عَجلــى تُــرِنُّ وَتُعــوِلُ
وَأَغدو خميصَ البَطنِ لا يَستَفِزُّني إِلـى الـزادِ حِـرصٌ أَو فُـؤادٌ مُوَكَّـلُ

. .

فأولى صفاته أنه أبي صاحب كرامة عالية ولديه أنفة ولا يقبل الضيم أو الهزيمة، حيث يسحب هذه الصفات على الحيوانات التي يعيش معها والتي استبدلها بأهله، بل هو أشد إباءً منها، والزيادة في الخصال الحميدة على من ثبتت له هذه الصفات أكمل. أما التفضيل على الناقص فهو في الحقيقة نقص، وهذا ما استقر في العقلية العربية وفى منظومتها الأخلاقية لذا قال الشاعر [٢٥]:

إذا أنـت فضـلت امـرًا ذا نباهـة على نـاقص كـان المديح من الذم

. .

وهو ليس جشعًا؛ لأن الجشع من الصفات التي تأباها طباع الأكرمين الكاملين، وهو لا يفعل ذلك عن خوف، ولكن رغبة في التفضل على من معه أو يرافقه، ويضيف الشاوي في سكب الأدب أن "الشنفرى ليس فيه من مكارم الأخلاق تخلق منه، بل غريزة، إذ لو كانت غير غريزة لم يتكلفها مع مرافقة الحيوانات لأنه لا موجب للتكلف، إذ ليست مدركة" [٢٦].

والشنفرى شخصية مأزومة نفسيا، وسبب أزمته غدر الأهل وعدم وفائهم، لذا عبر عن الثلاثة: القلب والسيف والقوس بالأصحاب لشدة الملازمة، إذ لا تنفك عنه في حالة، بخلاف الأهل فإنهم أهل وإن بعدوا أو فارقوا.

تعكس هذه الأبيات ملامح شخصية شعرية متفردة تنتمي إلى منظومة قيمية صارمة، تستند إلى الشجاعة الفردية، والنقاء الأخلاقي، والانفصال القيمي عن الجماعة عند انحطاطها، فالشاعر يعلن انفصاله عن قومه لا بسبب عرق أو نسب، بل بسبب خلل في المنظومة القيمية لديهم، وفي المقابل يعلن انتسابه لمن هم في القيمة أعلى في الانتماء فيما قد نطلق عليه "الانتماء النخبوي القيمي"، حيث يختار الفرد مجتمعه القيمي لا النسبي. وتتحول ساحة المعركة في هذه الأبيات إلى ساحة تقييم أخلاقي يؤسس فيها لمعايير قيمية هي الفيصل في البقاء أو الفناء، فالفضل لا يُمنح بالكلام ولا بالجاه، بل بالإقدام على الموت. السيف والرمح هما موازين الرجولة، وهذا يشير إلى أن معيار الإباء والكرامة من المعايير الحقيقية للتفوق الإنساني.

وثاني هذه الصفات الشجاعة، وهي واحدة من أهم القيم الأخلاقية في منظومة القيم العربية؛ حيث تفرضها طبيعة البيئة القاحلة الصعبة في الصحراء العربية الممتدة، لذا تغنى بها كثير من الشعراء العرب، ومثلت ركنًا ركينًا في لامية العرب، ولاسيما أن حياة الصعاليك الذين حملوا أرواحهم على أكفهم قد فرضت عليهم هذه القيمة فإما الشجاعة وإما الموت، إذ قال الشنفرى [٢٧]:

وَلَستُ بِمِهيافٍ يُعَشّي سَوامَهُ مُجَدَّعَةً سُقبانَها وَهيَ بُهَّلُ
وَلا جَبأ أَكهى مُربٍّ بِعِرسِهِ يُطالِعُها في شَأنِهِ كَيفَ يَفعَلُ
وَلا خَرِقٍ هَينٍ كَأَنَّ فُؤادَهُ يَظَلُّ بِهِ المُكّاءُ يَعلو وَيَسفِلُ
وَلا خالِفٍ دارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ يَروحُ وَيَغدو داهِناً يَتَكَحَّلُ
وَلَستُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دونَ خَيرِهِ أَلَفَّ إِذا ما رُعتَهُ اهتاجَ أَعزَلُ

فالشاعر شجاع لا يعتريه الخوف، والجديد في وصف الشجاعة عند الشنفرى الاعتماد على العلامات والأمارات الجسدية في إثبات الصفات، فهو لا يعتريه العطش ليس "مهيافًا"، وهو تعبير كنائي لارتباط إحساس العطش بالخوف؛ حيث تزداد درجة الحرارة لسرعة تدفق الدم، واللجوء إلى هذه الآلية أكثر إثباتًا للصفات القيمية؛ لأن فيه نوعًا من إعمال العقل، وهو ليس جبانًا يرعى إبله ليلًا خوفًا من الناس، وإبله ليست "مجدوعة" الأنف بفعل أعدائه لإحساسهم بمهانته، وإبله بلا صرار، وهو ما يمنع حلبها لمعرفة الناس بمالكها ومهابته.

وتبدو ملامح المجتمع العربي وذكوريته في وصف الشنفرى نفسه بأنه ليس جبانًا مشغولًا بالمرأة، وانه متصف بالرجولة فهو ليس ضعيف الشخصية يستشير زوجه في كل أموره، وكأنه لا رأي له، وهو ليس مشغولًا بالتغزل بالمرأة والتزين لها.

تستمد القصيدة تصوير الشجاعة من معطيات البيئة، فهو -أي الشنفرى- ليس جبانًا كذكر النعام يزداد خفقان قلبه وكأن قلبه قد حمله طائر المكاء يعلو به ويسفل، وهذا يؤكد أن شعره وغيره من الشعراء الصعاليك فيه تجسيد لملامح البيئة ولذا غلبت عليه الصورة الحسية البعيدة عن التجريد والمستمدة من الطبيعة نفسها؛ ويعود ذلك إلى رؤيتهم الخاصة للحياة وانفتاحهم على الطبيعة وأثرها فيهم والتي كان لها ثقل وضغط دائم على الروح الإنسانية التي يمتلكونها، وامتلاء وحضور في الوعي يضغط على الروح من الخارج ويخرق نقابها ليسكن في داخلها، ويتحكم بالخيال القادر دومًا على إيقاظ أحاسيس هاجعة فيه أسهمت في عملية نسج الصورة التشبيهية وبنائها من عناصر الطبيعة [٢٨] التي ليست هنا مجرد خلفية يتكئ عليها بل مصدر للقيم،

كما أن شجاعته لا تتوقف على قوته الجسمانية فقط، بل حتى قوة الرأي لديه مما يدلل على أن الشجاعة فيه ليست سطحية بل ترتبط أيضا بالعقل وقوة الإرادة والاستقلالية، لا التبعية، ما يعبلا بع عن الصلابة الوجودية.

الصفة الثالثة التي تؤسس لمنظومة القيم في نص الشنفرى، هي التعفف وتتجلى في قوله[٢٩]:

أَديمُ مِطالَ الجوعِ حَتّى أُميتَهُ وَأَضرِبُ عَنهُ الذِكرَ صَفحاً فَأَذهَلُ
وَأَستَفُّ تُربَ الأَرضِ كَيلا يَرى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَولِ اِمُرؤ مُتَطَوَّلُ
وَلَولا اجتِنابُ الذَأم لَم يُلفَ مَشرَبٌ يُعاشُ بِهِ إِلّا لَدَيَّ وَمَأكَلُ
وَلَكِنَّ نَفساً مُرَّةً لا تُقيمُ بي عَلى الذَأمِ إِلّا رَيثَما أَتَحَوَّلُ
وَاَطوي عَلى الخُمصِ الحَوايا كَما اِنطَوَت خُيوطَةُ مارِيٍّ تُغارُ وَتُفتَلُ
وَأَغدو عَلى القوتِ الزَهيدِ كَما غَدَا أَزَلُّ تَهاداهُ التَنائِفُ أَطحَلُ
غَدا طاوِياً يُعارِضُ الريحَ هافِياً نحوتُ بِأَذنابِ الشِعابِ وَيَعسَلُ
فَلَمّا لَواهُ القوتُ مِن حَيثُ أَمَّهُ دَعا فَأَجابَتهُ نَظائِرُ نُحَّلُ
مُهَلهَةٌ شِيبُ الوُجوهِ كَأَنَّها قِداحٌ بِكَفَّي ياسِرٍ تَتَقَلقَلُ
أَو الخَشرَمُ المَبعوثُ حَثحَثَ دَبرَهُ مَحابيضُ أَردافُهُنَّ سامٍ مُعَسَّلُ
مُهَرَّتَةٌ فوهٌ كَأَنَّ شُدوقَها شُقوقُ العِصِيِّ كَالِحاتٌ وَبُسَلُ
فَضَجَّ وَضَجَّت بِالبَراح كَأَنَّها وَإِيّاه نوحٌ فَوقَ عَلياءَ ثُكَّلُ
وَأَغضى وَأَغضَت وَاِتَّسى وَاِتَّسَت بِهِ مَراميلُ عَزّاها وَعَزَّتهُ مُرمِلُ
شَكا وَشَكَت ثُمَّ اِرعَوى بَعدُ وَارعَوَت وَلَلصَّبرُ إِن لَم يَنفَعِ الشَكوُ أَجمَلُ
وَفاءَ وَفاءَت بادِراتٌ وَكُلُّهَا عَلى نَكَظٍ مِمّا يُكاتِمُ مُجمِلُ
وَتَشرِبُ أَسآرِيَ القَطا الكُدرُ بَعدَما سَرَت قَرَباً أَحناؤُها تَتَصَلصَلُ
هَمَمتُ وَهَمَّت وَاِبتَدَرنا وَأَسدَلَت وَشَمَّرَ مِنّي فارِطٌ مُتَمَهَّلُ
فَوَلَّيتُ عَنها وَهيَ تَكبو لِعَقرِهِ يُباشِرُهُ مِنها ذُقونٌ وَحَوصَلُ

كَـــأَنَ وَغاهـــا حَجرَتَيـــهِ وَحَولَـــهُ أضـــاميمُ مِـــن سِـــفرِ القَبائِـــلِ نُـــزَّلُ

.

والشاعر هنا يتناول قيمة أخلاقية مهمة ومفارقة في مجتمع صحراوي قد يموت الإنسان جوعًا أو عطشًا، وهى صفة التعفف التي قد يحسب الجاهل أهلها أغنياء، مصداقًا لقوله تعالى: (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) [٣٠]، ما يؤكد على أن التعفف من القيم الجاهلية التي جاء الإسلام ليؤكد على قيمتها، فالشاعر يديم مماطلة الجوع حتى يفقد الإحساس به؛ لكي لا يسأل الناس أو لا يكون موضعًا لتفضل الآخرين، على الرغم من كونه شجاعًا قويًا عداءً يملك أن يتحصل على قوته بقوته وسلاحه، وقد ذهب بعض النقاد أن في قوله هذا مبالغة، مثل ماذهب إليه الشاوي في تعليقه: "ولعمرى لقد بالغ في صبره على الجوع بحيث أن ما ادعاه خارج عن مقدرة البشر، لكن لا يخفى أن للبلغاء مقامات خطابية وقضايا شعرية يسكبونها في قالب الإمكان، فيتلقاها كل من نظر إليها بالقبول والعرفان" [٣١].

وهو في سبيل ذلك يستف التراب أي يأكل التراب وهذه مبالغة أخرى لأن الاعتياض بالتراب عن الطعام مخالف للعادة، وخارق لها، ولكنها طبيعة الشعر وصدق البحتري حين قال للمناطقة[٣٢]:

كَلَّفتُمونـــا حُـــدودَ مَـــنطِقِكُم في الشِعرِ يُلغى عَن صِدقِهِ كَذِبُه

وَلَـم يَكُـن ذو القُـروحِ يَلهَـجُ بِالـــ ـــمَنطِقِ مـــا نَوعُـــهُ وَمـــا سَـــبَبُه

.

وكل ذلك حتى لا يراه أحد المتفضلين فيتفضل عليه تعففًا. بل إن تعففه وحرصه على صيانة عرضه هي الوازع الذي منعه من الحصول على متاع الدنيا قوة واغتصابًا، فلولا اجتناب الذم لوجد عنده من صنوف الطعام والشراب الكثير.

إن أبيات الشنفرى على ما حملته من تصاوير وصلت في ميزان بعض النقاد إلى مرحلة عالية من المبالغة، والخروج فيها بالشاعر وتصويره تصويرا خارقا ومتجاوزا القدرة البشرية يتناغم وطبيعة الشعر، ويكتب الشنفرى هنا من موقع الصعلوك الذي اختار العزلة والعيش مع الحيوان كبديل لأهله وذويه وجماعته التي لم تنصفه، فشيد خطابا بديلا للكرامة الفردية، قوامه الاستغناء عنهم، والاعتماد فقط على الذات، وهذه الأبيات لا تقدم التعفف بوصفه فضيلة ثانوية بل كـ"هوية"، فالأنا هنا "ذات سيادية" تُعرّف نفسها بما ترفضه بشدة لا بما تملكه، لذا تجد أن هذا الخطاب قد بني على مثل هذه المبالغة التي تأتي مساوية ومعبرة لمدى وقوة الرفض، فجاء الخطاب بمفردات الخصاص، الجوع، العطش، الخمص، واستمراء ما لا يستمرئ، وغيرها لينتظم الحرمان في صورة حسية قاسية، تتعادل وتتماثل وقسوة جماعته، ولاشك بأن مثل هذا الامتناع، وسف التراب عوضا، فيه إشارة إلى السيادة، تلك السيادة القوية التي لا ترتهن إلى الشهوات والملذات بل تبقى صامدة أمام ذلك كله.

ثم ينتقل إلى وصف الذئاب بدافع المشابهة بينهما، فكلاهما جائع على الرغم من القدرة على توفير الطعام، إلا أنهما لم يفعلا بدافع اجتناب الذم، وهنا مفارقة، فالذئب حيوان ضارٍ ارتبط في العقلية العربية بسمة الغدر، ولكن الشاعر يطرح القضية بشكل مغاير هو: أيهما أشد غدرًا الذئب أم اهله الذين استعبدوه واخذوه بجريرة لم يقترفها أو يفعلها؟! ويمكن تمثل العلاقة بين الشاعر والذئب والأهل بشكل يعيد ترتيب المعادلة، فالشاعر صور مجتمع الذئاب بصفات بشرية في حالة الارتقاء والسمو، وطرح على الأهل صفات الغدر وهي صفة الذئاب في حالة التدني والانحطاط فنجده يصور مجتمع الذئاب الجائعات وقد اجتمعت حول كبيرها تنوح نواح الثكلى، يلهم بعضهم بعضًا مشاعر التأسي والعزاء وكأنها في مجلس عزاء بشري. بينما الأهل لم يأسوا لحال الشاعر وهو ابن لهم، فلا إحساس بالفقد، ولا عزاء لهم لأنهم فقدوا

مشاعر الود، وإن كانت سمة الغدر كما اعتقدتها العقلية العربية ملتصقة بالذئب إلا أنها نتاج طبعي لهذا الكائن المفترس الذي يتصرف وفقا لغريزته وطبيعته الحيوانية للحفاظ على بقاءه وصيد فريسته، بعكس الإنسان الذي يرتقي بأخلاقه ويسمو تعاملا مع البشر.

وكراهية دار الذلة والمهانة هي طبيعة النفس العربية الأبية، وليست نفس الشنفرى فقط، أو ما يمكن أن نطلق عليه مسمى "عمومية الطبائع الأخلاقية" فمنظومة القيم الأخلاقية العربية واحدة ثابتة لا مراءٍ فيها، هي سمات أمة وإن تمثلت في أفرادها، فالشاعر أسس ميثاقا قيميا قوامه:

الحرمان الإرادي ← استقلال القيمة ← هيبة وجود

وبهذا الميثاق يتحول الجوع من حيز دلالة العجز إلى البرهان على القوة والكفاء القيمية، ويغدو التعفف "قوة ناعمة" تصنع للفرد مكانته حتى وهو وحيد في الفلاة منعزلا عن قومه.

فالتعفف عند الشنفرى "رفض السؤال رغم شدة الجوع" ينسجم وثقافة الشرف في الأنثروبولوجيا القبلية فالشرف قيمة محورية، لا يقاس بالوفرة المادية بل بالقدرة على إظهار الاستغناء والقوة أمام الآخرين كما أشار لذلك مؤسس هذا المفهوم الانثروبولوجي جون بريستاني[٣٣]، فإذا كان السؤال عار اجتماعي؛ لما فيه من إظهار للضعف والاعتماد على الآخر، والاستغناء شر حتى لوكان ثمنه الجوع أو حتى الموت والهلاك، لتظل الكرامة محفوظة.

الصفة الرابعة، وهي صفة تتطلبها طبيعة الحياة في الصحراء العربية، لأنها قاحلة يشبع صاحبها يومًا ويجوع أيامًا، فهي لا تعرف الرفاهية، وسكانها قد تعودوا شظف العيش، ولاسيما حياة الصعاليك ومنهم الشنفرى، وهو بما فيه من بسالة وشجاعة يملك أسباب الغنى، ولكنه يأبى ذلك؛ لأن هذا الغنى لن يتحقق إلا بظلم الآخرين أو على حسابهم، وهو يأبى ذلك، قال الشنفرى[٣٤]:

فَـإِنّي لَمَـولى الصَـبرِ أَجتـابُ بَـزَّهُ عَلى مِثلِ قَلبِ السِّمْعِ وَالحَزمَ أَفْعَلُ
وَأُعــدِمُ أَحيانــاً وَأَغنــى وَإِنَّمــا يَنــالُ الغِنــى ذو البُعَـدةِ المُتَبَـذَّلُ
فَــلا جَــزعٌ مِــن خَلَّــةٍ مُتَكَثِّــفٌ وَلا مَــرحٌ تَحــتَ الغِنــى أَتَخَيَّــلُ
وَلا تَزدَهي الأَجهالُ حِلمي وَلا أَرَىٰ سِـؤولاً بِأعقـابِ الأَقاويـلِ أَنمُـلُ

.

والشنفرى لا يأتي الصفات هجمة، ولكنه يمهد لها، فقبل أن يتناول وصف نفسه بالصبر، تحدث عن جوعه وهزاله، حتى إنه ألف أو تعود افتراش الأرض بجسده النحيل، فأصبح ظهره وفقرات ظهره تلامس الأرض قبل بقية الجسد؛ لشدة هزاله، وأن ذراعه الذي يضعه تحت رأسه يكاد يكون خاليًا من اللحم حتى اتضحت مفاصله فقال [٣٥]:

وَآلَفَ وَجهَ الأَرضِ عِندَ افتِراشِها بِأَهــدَأَ تُنبيــهِ سَناسِــنُ قُحَّــلُ
وَأَعدِلُ مَنحوضاً كَأَنَّ فُصوصَهُ كِعابٌ دَحاها لاعِبٌ فَهيَ مُثَّلُ

.

وهذا صبر على الجوع، وثمة صبر على الهموم والأحزان فقد تعوَّد عليها، لأنها كثيرًا ما تعوده أو تزوره اعتياد حمى الربع، بل هي أثقل من هذه الحمى؛ لأنها تحيطه من أعلاه ومن أسفله، فقال [٣٦]:

وَإِلــفُ هُمــومٍ مــا تَــزالُ تَعــودُهُ عِيـادًا كَحُمّـى الرَبـعِ أَو هِـيَ أَثقَـلُ
إِذا وَرَدت أَصــدَرتُها ثُــمَّ إِنَّهــا تَثوبُ فَتَأتي مِن تُحَيتٍ وَمِن عَلُ

ثم انتقل إلى الحديث عن الصبر، ولكن ما قيمة تناول هذه المقدمات؟. إن هذه المقدمات تؤكد على حقيقة وتجيب عن سؤال محوري في هذه الدراسة وهو: هل الصبر على الشدائد خلق أم قيمة؟.

إن الصبر على الشدائد قيمة مكتسبة، وليست خلقًا أو ملكة فطرية، ولكنها أحد معطيات البيئة، تكتسب بالاعتياد، وما يكتسب بالاعتياد فهو قيمة وليس خلقًا، وقيمة الصبر على الشدائد مرتبط بشظف العيش أو صعوبات الحياة، وهي سمه من سمات الأمة العربية، ومنشأ صبر العربي على سوء الحال، خشية طلب النوال من الأنذال.

وبعد أن عرض الشاعر كل هذه المقدمات التي أورثته الصبر، وبعد أن عرض تجليات هذا الصبر، تجده يطرح فكرته العامة وهو أنه مولى الصبر وحليفه وأليفه، وأنه في صبره رابط الجأش ثابت القلب، وكأن قلبه قلب السَّمْع، وهو ولد الذئب من الضبع، وقد ورد في القاموس المحيط للفيروزآبادي[٣٧]: إنه لا يموت حتفه أنفه كالحية، أسرع من الطير، ووثبته تزيد على ثلاثين ذراعًا، كما قيل عنه: إنه أجرأ من الأسد.

كما وصف نفسه بالحزم حتى في أشد لحظات الخوف، فهو رجل لا تطيش عقله الخطوب ولا تنهنهه الأقدار والكروب، ففي مثل هذه اللحظات الحزم أفعل.

وهو متغير الأحوال، أحيانًا يكون غنيًا، وأحيانًا أخرى يكون فقيرًا، وتجده راضٍ عن نفسه في كلتا الحالتين، فلا يأس مع الفقر، ولا بطر مع الغنى، وقد قدم الفقر على الغنى؛ لأنه الأصل؛ حيث يولد الإنسان فقيرًا ثم يغنى إن قدر له الله ذلك، ولذلك قالت العرب: " هو أفلس من ابن يوم " وفى صيغة أخرى، أملس من ابن المذلق" [٣٨]. أي الإنسان لحظة ولادته.

وهو لا يجزع من الفقر ولا يخافه، ولا يفرح بالغنى ولا يختال به ولا يتبطر.

ويأتي الحلم أساسا في هذا القصيدة، والحلم هو الصفح والطمأنينة والأناة والتعقل، وضده الطيش. ويقال إنه يكون حين تكون النفس مطمئنة لا يحركها الغضب بسهولة ولا تضطرب حين إصابة المكروه، وهو من القيم الأخلاقية التي حثت عليها الأدبيات العربية بوصفها قيمة أخلاقية عربية أصلية، وقد وردت في الشعر العربي جاهليه وإسلامية بعصوره المختلفة، فالحلم يسمو بصاحبه والغضب يحط من قدر من يتصف به ولذا رأى الشاعر أن أطماعه لا تستخف حلمه، ولا الفقر يوهى عزمه فيراه الناس سؤولًا كذوبا، يكذب بأعقاب أحاديثه؛ لأنه إما أن يصف من يطلب منه العطاء بما ليس فيه، أو أن يبالغ في المسكنة والمذلة جلبًا لعطف الآخرين [٣٩].

تلك هي القيم التي تغنى بها الشنفرى في لاميته الشهيرة المعروفة بلامية العرب، وإذا كان قدامه بن جعفر قد حصر هذه الفضائل في أربع فضائل؛ حيث قال: " إنه لما كانت فضائل الناس، من حيث إنهم ناس، لا من طريق ما

هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبًا، والمادح بغيرها مخطئًا " [٤٠]. فإن هذه الخصال الأربعة تتفرع منها فضائل أخرى على ما أتضح في نظرية الفضائل العربية. ولم تخرج القيم والفضائل التي افتخر بها الشنفرى عن هذه المنظومة، وفى ذلك دليل على أن هذه الفضائل راسمة لملامح الشخصية العربية.

الخاتمة

كشفت هذه الدراسة أنّ لامية العرب للشنفرى تمثل نصًّا استثنائيًا في سياق الشعر الجاهلي، إذ تجاوزت وظيفتها الجمالية لتغدو وثيقةً قيميةً تعيد صياغة معايير الشرف والكرامة في المجتمع القبلي. لقد حملت هذه القصيدة ملامح شخصية مأزومة اجتماعيًا، لكنها واعية قيميًا، استطاعت أن تُحوّل حرمانها الفردي إلى منظومة بديلة قوامها الشجاعة والتعفّف والصبر والوفاء بالذات، في مقابل منظومة تقليدية مهترئة باتت عاجزة عن حماية الفرد وصون كرامته.

لقد أظهرت الدراسة أنّ الفرق بين القيمة والخلق، أن القيمة مكتسبة تتغير بتغير المجتمعات وتتأثر بظروف المجتمع والسياق الاجتماعي، أما الخلق فهو ملكة فطرية ثابتة، فالخلق يرتبط بالعادات المزاجية للإنسان فهو هيئة نفسانية، أما القيمة فترتبط بالعادات السلوكية للمجتمع.

إن معامل التغير في منظومة القيم عند الشنفرى هو امتهان أهله له واستعبادهم إياه على الرغم من سمو أصله ونسبه، وقد اتسم فهم الشنفرى لمنظومة القيم بالتماهي أو ما يعرف باسم الامتداد الوجداني مع عالم الحيوان، حيث كشفت الدراسة أنّ الشنفرى لم يكن مجرّد شاعر صعلوك يرفض الأعراف القبلية، بل كان فاعلًا ثقافيًا أعاد تعريف الانتماء العربي على أسس جديدة؛ حيث انتقل من رابطة الدم والنسب إلى رابطة الاستحقاق القيمي. فالمعيار عنده ليس القرابة بل القدرة على الاستغناء، وضبط الرغبات، والإيثار، والثبات في وجه الجوع والحرمان. بذلك صاغ الشاعر خطابًا بديلًا يفضح تهافت القيم القبلية حين تخلّت عن جوهرها، ويطرح بديلًا ينتمي إلى «مجتمع الصعاليك» الذي أسس معيارًا مغايرًا للشرف.

لقد خلصت الدراسة أيضا إلى أن القصيدة أو لامية العرب ليس غرضها الرئيسي هو الفخر وإنما هي قصيدة في العتاب، وقد تمثلت القيم الواردة في القصيدة في الإباء والشجاعة والتعفف، والصبر، والحلم، وهي لا تخرج عن منظومة القيم التي تناولها كل من قدامة بن جعفر وابن طباطبا.

وخلصت أيضا إلى أنّ الشنفرى قدّم في لاميته تصورًا أنثروبولوجيًا متقدّمًا يتقاطع مع ما عرف لاحقًا في الدراسات الحديثة بـ«ثقافة الشرف والعار» (Honour–Shame)، حيث تُقاس الكرامة لا بما يُملك من مالٍ أو نسب، بل بمدى القدرة على صيانة السمعة والتحرر من التبعية. وهنا يتجلّى التعفّف، في

صورته القصوى، كاستراتيجية وجودية: الامتناع عن السؤال ولو كان الثمن الهلاك، والإصرار على صون الذات بوصفها محور الهوية.

إنّ النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة تؤكد أنّ لامية الشنفرى تمثل تحوّلًا نوعيًا في بنية القيم الجاهلية؛ فهي ليست صدىً لتمرّد فردي وحسب، بل لحظة فارقة في الوعي الجمعي العربي، حيث يُعاد تعريف الهوية والكرامة بوصفهما قيمًا سيادية تتأسس على الحرية والاستقلال لا على الخضوع أو الانتماء القَبَلي.

ومن هنا، فإن النصّ يكشف عن قدرة الشعر الجاهلي على أن يكون مرآةً للوعي الاجتماعي، ووسيلةً لإعادة إنتاج القيم، بل وأداةً للنقد العميق لمظاهر الانحراف في البنية القبلية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر.

الشنفرى: ديوانه، جمعه وحققه وشرحه: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧ه/١٩٩٦م.

ثانيًا: المراجع العربية.

١- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: عبدالكريم العزباوي وآخرون، دار الكتب المصرية، د. ت.

٢- عبد الملك بن قريب بن أصمع: تأريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، منشورات المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.

٣- بطرس البستاني: دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

٤- عبدالقادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩م.

٥- أبوتمام: شرح ديوان الحماسة، تحقيق: محمد حسن نقش، دار الغرب الإسلامي، الرباط، المغرب، ١٩٩١م.

٦- السيد الشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

٧- حامد عبدالقادر: دراسات في علم النفس الأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٤٥م.

٨- شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

٩- ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

١٠- طرفة بن العبد البكري: ديوانه، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.

١١- عبدالمنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.

١٢- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.

١٣- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

١٤- الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

١٥- يوسف اليوسف: مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

ثالثا: الرسائل الجامعية.

مهند مجيد العبيدي: سكب الأدب على لامية العرب لسليمان الشاوي، دراسة وتحقيق، ماجستير مخطوطة، كلية التربية، جامعة تكريت، العراق، ١٤٢٦ه/٢٠٠٥م.

رابعا: المراجع الأجنبية.

Peristiany, J. G. (ed.) Honour and Shame: The Values of Mediterranean Society. London: Weidenfeld & Nicolson, 1965.

الهوامش

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، بطرس البستان، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ٣٩٥/٣.

(٢) انظر: مهند مجيد العبيدي: سكب الأدب على لامية العرب، لسليمان بك الشاوي دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير، كلية التربية – جامعة تكريت، العراق، ١٤٢٦ه/ ٢٠٠٥م، ص ٤١ – ٤٥.

[٣] . الأغاني، تحقيق: عبدالكريم الغرباوي وآخرين، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت، ٦٠٨/٢١.

[٤] . خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩م، ٢٤٣/٣.

[٥] . ديوان الشنفرى، جمعه وحققه وشرحه: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م، ص: ٦٨.

[٦] . البطولة في الشعر العربي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤م، ص: ١٧.

[٧] . انظر مثلا: دراسة المثل الأخلاقي وفن المديح، للباحثة لطيفة إبراهيم الرشيدي، وكذلك دراسة الشعر الأخلاقي: عصر صدر الإسلام نموذجا، لمحمد عبده المشد، وغيرها من دراسات.

[٨] . عبدالمنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م، ص: ٦٧٠.

[٩] . المرجع السابق، ص: ٣٣٥.

[١٠] . التعريفات، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م، ص: ٢٠٥.

[١١] . تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص: ١٨- ١٩.

[١٢] . ديوان الشنفرى، مصدر سابق، ص:٥٨

[١٣] . ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، ص: ٥٢.

[١٤] . ديوان الشنفرى، مصدر سابق، ص:٥٨

[١٥] . المصدر السابق، ص: ٥٩.

[١٦] . عيار الشعر، مرجع سابق، ص: ١٩

[١٧] . المطبعة النموذجية، القاهرة،١٩٤٥م، ص:٤٧.

[١٨] . ديوان الشنفرى، مصدر سابق، ص: ٥٩.

[١٩] . مرجع سابق، ص: ١١٩.

[٢٠] . مرجع سابق، ص: ١٢٧.

[٢١] . ديوانه مع شرحه للشيخ: عبدالعزيز بن أحمد، المكتب الإسلامي، دمشق، د. ت، ص: ٢٧٧.

[٢٣] . الأصمعي: تأريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، منشورات المكتبة العلمية، بغداد، ١٩٥٩م، ص: ١٨.

[٢٤] . ديوان الشنفرى، مصدر سابق، ص:٦٠-٦١.

[٢٥] . البيت من محفوظ الشعر العربي، ولم أجد له نسبه.

[٢٦] . سكب الأدب على لامية العرب لسليمان بك بن عبد الله بك الشاوي، مرجع سابق، ص: ١٥٤.

[٢٧] . ديوان الشنفرى، مصدر سابق، ص:٦١-٦٢.

[٢٨] . انظر: يوسف اليوسف: مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ص: ٣٠٣ – ٣٠٦.

[٢٩] . ديوان الشنفرى، مصدر سابق، ص:٦٢.

[٣٠] . سورة البقرة: الآية (٢٧٣).

[٣١] . سكب الأدب على لامية العرب، مرجع سابق، ص: ٢٢٢، ٢٢٣.

[٣٢] . ديوان البحتري، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، ص: ٢٠٩/١.

[33] . Peristiany, J. G. (ed.) Honour and Shame: The Values of Mediterranean Society. London: Weidenfeld & Nicolson, 1965. Pp.10-15.

[٣٤] . ديوان الشنفرى، مصدر سابق، ص:٦٩.

[٣٥] . المصدر السابق، ص: ٦٧.

[٣٦] . السابق، الصفحة نفسها.

[٣٧] . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ت، مادة: (سمع).

[٣٨] . الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ٤٦١/٢.

[٣٩] . أبو تمام: شرح ديوان الحماسة، تحقيق: محمد حسن نقش، دار الغرب الإسلامي، الرباط، المغرب، ١٩٩١م، ص: ١٣/١.

[٤٠] . قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص: ٩٦.